اللفظ ومحتواه التصوري(*)

بقلم : جورج ماطوري،

ترجمة : د.عبد العلي الودغيري
كلية الآداب – الرباط

1 – أصول الرمزية اللغوية

إن الفكر التصوري، حسب علماء النفس، مرتبط بوجود واستعمال نظام من الأدلة، أي بمنظومة رمزية[1].

وأصول هذه المنظومة الرمزية نعثر عليها في مراحل الفكر البدائية جدا. فعملية الإحساس هي في حد ذاتها دليل، ولكنه دليل لا يفصح عن نفسه، ويحتاج إلى أن يُعبَّر عنه بالفكر[2] وأما الرمز الحقيقي فلم ينشأ إلا في مرحلة جد متطورة وهي مرحلة النشاط المنعكس (Activité réflexe). إن دراسة الانعكاسات المشروطة (réflexes conditionnés)[3] تفيدنا بأنه في بعض الحالات يمكن لمنبّه أن يصبح رمزا لمنبّه آخر يحل محله.ونفس خصائص الدليل (Signe) أو العلامة (Signal) نجدها في الغريزة التي يمكن اعتبارها بمثابة شكل أو صورة للذاكرة : ذاكرة التجربة الفردية، كما نجدها أيضا في العادة (l'habitude)..الخ. والانفعالات نفسها يعبر عنها بالحركات التي هي أدلة[4].

على أنه ينبغي أن نلاحظ وجود هوة بين

(*) البحث المترجم عبارة عن فصل من كتاب اللغوي الفرنسي المعاصر الدكتور جورج ماطوري المطبوع بباريس سنة 1953 بعنوان : (منهج المعجمية) (La Méthode en lexicologie). وقد فرغ المترجم من نقله إلى العربية بكامله وهو الآن قيد الطبع.

1) يفرق علماء النفس بين الرمز (Le Symbole) والدليل (Le Signe). فعلى حين يكون الدليل اعتباطيا نجد الرمز يعبر عن علاقة غير اصطلاحية. فألوان الراية دليل، والحركة التي يقوم بها شخص محاكيا وضع الصليب رمز. والرمز بطبيعة الحال يمكن أن يدل على أشياء عديدة في وقت واحد، ويمكن أن يكون واضحا أو غامضا. ونموذج الرمز الغامض هو الرمز البودليري الذي يعبر عن علاقة شبه قوية، ولكنه ذاتي. (انظر : Dumas : Nouv. traité de psych.T.4.p.272)

2) حول تبادل المواقع (Transposition) في الاحساس (من نوع :Son aigre وCouleur chaude الخ...) الذي له طابع رمزي، اقرأ : (G.Dumas)مرجع مذكور ج 4 ص 272.

ملاحظة المترجم :المعنى الحرفي لقولهم في الفرنسية (son aigre) هو (صوت حازر شديد الحموضة) والمقصود صوت حاد، فاستعمل لفظ خاص بحاسة الذوق لحاسة السمع. والمعنى الحرفي لقولهم (Couleur chaude) هو : (لون حام أو ساخن) والمقصود لون مثير، فاستعمل لفظ خاص بحاسة اللمس (حام–ساخن) لحاسة البصر. وهذا هو تبادل المواقع في الاحساس المقصود هنا في كلام المؤلف (م).

3) نحن نعلم أن الكلب يسيل لعابه حين نقدم له مادة غذائية، فإذا قدمنا له هذه المادة وأريناه في الوقت نفسه ضوءا أحمر ثم كررنا هذه التجربة مرات، فإن اللعاب سوف يسيل بمجرد أن يظهر لعيني الكلب الضوء الأحمر. ذلك هو الانعكاس (أو الارتكاس) المشروط. فالمنبِّه (الضوء الأحمر) يصبح دليلا لمنبه آخر (ظهور اللحم).

4) التعبير عن الغضب والخوف دليله هو الشروع في عمليات الهجوم والفرار...الخ.

العلامة (Signal) في عالم الحيوان والدليل الموضوع في عالم الإنسان تعبيرا عن غرض معين، وذلك ما نراه عند الشعوب المتخلفة نفسياً. فعند هذه الشعوب نجد لغة الحركات تصاحب لغة التكلم[1]. ولعل لغة الحركات تكوّن مع الصراخ ذكرى «لغة الفعل» التي ربما كانت أسبق من اللغة بمعناها الحقيقي كما كان يرى كوندياك (Condillac)[2] : «إن التعبير الطبيعي يصبح رمزا بالدخول في عالم الأحكام وبالعمل الذهني الذي يجعل الفكر يطابق العمل المباشر والسريع. إن الدليل هو أداة للفكر الجاهز»[3].

لقد عمل علماء النفس غاية مستطاعهم من أجل تحديد طبيعة المسار الذي يبدأ بالفكر وينتهي بالدليل الذي هو الكلمة[4]. وأثناء الانتقال من (الفكر المَحْض) إلى (الفكر المُطبَّق) تحدث وَقَفات بعضُها قصير وبعضُها طويل، يتحدد فيها الفكرُ ويبرز في شكل أدلّة. لقد أوضح كل من وليام جيمس ومدرسة ورزبورج (Würzburg) وبيني (Binet) أن الصُّورة الذهنية كانت رمزًا، وبين لنا دولاكروا (Delacroix) أنه بين الرمز والكلمة لا يوجد إلا فرق في الدرجة : فـ «كثير من الصور التي نستعملها لنفكر بها، حين لا نفكر إلا بالكلمات، هي... كلمات حقيقية، أي أدلة خرساء تصاحب أو تكمِّل اللغة لأن لها نفس الوظيفة. ومن هنا نرى أنه بالإمكان أن نفكر بالصور من غير كلمات، وأن كثيرا من الناس يستغنون أحيانا عن بعض الكلمات. فالصورة تؤدي هنا الوظيفة التي تَروَّضت كثيرًا على تأديتها بصحبة الكلمة، لأن امتلاك مثل هذه **الصور ــ الأدلة** التي لا تُستغل لذاتها بل لما تقوم بتمثيله، هو نتيجة حس تلفظي في الأصل. ولكن الصورة جديرة بالقيام بهذه الوظيفة لأنها أصلا رمز»[5]. واللغة قبل كل شيء وظيفة رمزية[6].

إن حياة المجتمع وحدها هي التي جعلت الإنسان يعطي قيمة زائدة لتعبير الانفعالات، وللحركة، والصراخ. ولعله بدون المجتمع لم تكن هذه الأشياء قد استطاعت أن تتحول إلى أداة للاتصال أي إلى أدلة بمعناها الحقيقي.

إننا في المستوى الأدنى من اللغة، نلاحظ أن الانفعالات تخضع لتنظيم جَمْعي وتكييف اجتماعي.

---

(1) تقوم لغة الحركات بدور مهم عند بعض الشعوب ولاسيما عند الهنود الأمريكيين، إذ تصبح أحيانا مفضلة لديهم على اللغة الشفوية (إقرأ : Levy Brühl : Fonctions mentales. p. 177). وهذه اللغة يمكن أن يعبر عنها بواسطة كتابة تصويرية. وقد أعطى دونيكر (Deniker) في «**أجناس وشعوب الأرض**» (Races et peuples de la terre. Paris. Schleicher. 1900. p. 166) مثالا عليها عند الهنود وهو المثال التالي : ويتعلق الأمر بعريضة قدمت سنة 1849 إلى رئيس الولايات المتحدة من رؤساء الشيبوايز (chippeways) يعلنون فيها امتلاك بُحيرات صغيرة واقعة جوار البحيرة العليا وتقود إليها إحدى الطرق. و«في تلك العريضة نجد الرسم الأول يرمز لرئيس المجموعة التي تقدمت بها. فطوطم (Totem) العشيرة في الرسم عبارة عن حيوان رمزي مرتبط بالأسلاف، وهو طائر الكركي، والحيوانات التي تتبعه هي طواطم المشاركين معه في تقديم العريضة. ونجد أن عيونهم كلها مرتبطة بعينيه للتعبير عن وحدة المشاعر، وعين الكركي الذي هو رمز رئيسهم الأول تمثل زيادة على ما ذكر نقطة الانطلاق لخطين اثنين : الأول متجه نحو رئيس الولايات المتحدة (دليل المطالبة أو الالتماس) والثاني نحو البحيرات (موضوع الالتماس)... إنه مثال للرسم الذي اشتقته الكتابة التصويرية أو الهيروغليفية عند المصريين والصينيين والمكسيكيين».

(2) Condillac : Essai sur l'origine....p : 118

(3) Delacroix : in. Dumas : Nouv. Traité. p : 144

(4) سيلاحظ أننا خلال هذا الكتاب نفرق بشكل تعسفي بين (الفكر) و (الكلمة). إن ضرورة التبسيط والرغبة في عدم المغامرة في المجال الخاص بعلماء النفس هما اللذان دفعانا إلى استعمال ثنائية ليس لها أساس.

(5) Delacroix : Le langage et la pensée.p : 105

(6) انظر :(Cassirer : Philosophie der symbolischen Formen). الذي يورد عدة نصوص في جزئه الأول.

بالفعل هناك «في بعض الظروف مجموعةٌ رمزية منظمة بشكل دقيق يعمل الطقوسيُّون على تثبيت وتدعيم صحتها... فطقوس الحزن، وحركات الألم مثلا، ليست مجرد انعكاسات فسْلَجيَّة أو نفسية. إنها في وقت واحد طقوس احتفالية تحكمها قواعد وكلمات وصيغ في لسان منظم مُمَنْهج»[1].

إن اللغة بدورها هي استعمال منظم للرمز، وقد كتب دولاكروا يقول : «من أجل أن تصبح اللغة شيئا ممكنا، يجب إحداث نظام من المفاهيم القائمة على علاقات. ومن أجل أن يكون هناك دليل ينبغي وجود نظام من الأدلة يستند على هذه المفاهيم وهذه العلاقات». إن المنظومة الرمزية الواحدة تكون أساسًا لآلية اللغة وآلية التصور معا. «اللغة هي لحظة تأسيس الأشياء في النفس... وكل فكر يقوم ببناء الأدلة والأشياء في وقت واحد» (المرجع السابق ص 579).

لقد حذفت الإنسانية من اللغة البدائية المؤلفة من الأصوات والحركات هذه الأخيرة [أي الحركات] حَذْفًا نهائيًا تقريبًا. فلغة التعبير بالحركات لم يعد لها سوى دور قليل الأهمية (باستثناء الحالة المعاكسة تماما وهي الحالة التي تصبح فيها وسيلة تعبير عند الصم البكم). ولقد تم إيثار لغة الأصوات لأنها أكثر غنى وأكثر قابلية للتعبير عن أدق الأمور، وأمكن التساؤل عما إذا كانت هناك خاصية فَسْلَجيَّة، كثراء النظام الصوتي عند الإنسان، قد أسهمت (مثل شكل اليد، والوقوف عموديا...الخ) في تحديد عنصر من العناصر الأساسية في الحياة النفسية للإنسانية.

2 – وجود الكلمة

كان سوسير يفرق بين اللسان (Langue) وهو المظهر الذي تتجلى فيه اللغة (Langage) أو«مجموعة المُوَاضعات الضرورية التي اتخذتها الهيئة الاجتماعية من أجل ممارسة اللغة عند الأفراد» (م.ع.ل.ع.ص 25)، وبين الكلام (La parole)الذي هو فِعْل فَرْدي «يحسن أن نتبيَّن بداخله :
1) التأليفات التي بواسطتها يستعمل الفرد المتكلم النظام الرمزي للسان للتعبير عن أفكاره الشخصية ؛
2) الآلية النفسية التي تبيح له أن يبرز هذه التأليفات بشكل ظاهري» (م.ع.ل.ع.ص 31).

ولما كان دولاكروا قد اعتبر تحليل سوسير تحليلا قاصرا، فقد ميَّز بين أربعة مظاهر في العملية (انظر : **التحليل النفسي للوظيفة اللسانية** = (Analyse Psychologique de la fonction linguistique وليس من مهمتنا أن نناقش قيمة هذه التقسيمات والتصنيفات التي ليس لها في نظرنا سوى أهمية ثانوية[2]،فسوف لن نهتم في هذا الكتاب إلا باللغة

---

(1) (Le langage et la pensée) وانظر حول القيمة الاجتماعية للدليل : (Mauss : journal de psychologie 1924) و(Merleau - Ponty : phénomenologie de la perception : p : 220 - 222).

وقد لاحظ سوسير جيدا تعقيد مفهوم الدليل هذا حين قال : «نطلق اسم دليل على الشيء المؤلف من التصور والصورة السمعية، ولكن في الاستعمال العادي يدل هذا اللفظ بصفة عامة على الصورة السمعية (الأكوستيكية) وحدها. مثال ذلك كلمة (arbor) (شجرة). إننا ننسى أنه إذا كانت (arbor) تسمى (دليلا) فليس ذلك إلا لكونه يحمل تصور «شجرة» بحيث إن فكرة الجزء المحسوس تستلزم فكرة المجموع. ولعله يزول الغموض إذا سمينا المفاهيم الثلاثة الموجودة هنا [دال – مدلول – دليل] بأسماء كلٌ واحد منها يستدعي الآخر. ونحن نقترح الاحتفاظ بكلمة (دليل) من أجل المجموع، وتعويض كلمتي (تصور) و(صور سمعية) على التوالي بكلمتي : (مدلول) و(دال) «محاضرات في علم اللغة العام (C.L.G) ص 101 – 102.

(2) انظر : هولمان (مرجع مذكور) الفصل الثالث الذي يورد فيه عددا من النصوص.

(Le langage) واللسان (La parole). وبصفة جد محددة سنهتم بمظهر خاص في **اللغة و اللسان** ألا وهو **المفردات**.

وهناك سؤال ينبغي طرحه قبل كل شيء وهو : هل تعتبر دراسة المفردات دراسة مشروعة ؟ أليست اللغة عبارة عن كلٍّ مجموعٍ، ومن الخطورة أن نفك ارتباط عناصره لاسيما حين يتعلق الأمر باقتراح عَزْل العنصر الذي يُبدي بصفة خاصة أقل ما يمكن من الاستقلالية ؟ فقد نقول عن الأصوات والتركيب (ويمكن أن نضيف الأسلوب) إنها حقائق... ولكن هل يمكن ذلك بالنسبة للكلمات ؟

إن مفهوم الكلمة غير واضح، ولا ينبغي أن ننخدع بالفصل الذي يَحدُث بين الكلمات أثناء الكتابة[1]، فهذا الفصل لم يكن موجودا على الدوام، إذ نحن نعلم أن الإغريق كانوا يصلون ما بين الكلمات، وأن الرومان هم أول من استعمل النقط للفصل بينها و«في الواقع إن الكلمات، سواء كانت منفصلة عن بعضها أم لم تكن، ليست مستقلة بذاتها لا صوتيا ولا دلاليا»[2]. وهذا يبدو صحيحا إذا نظرنا إلى العملية التلفظية داخل الشعور : ففي هذه المرحلة لا تكون الكلمة ــ كما سنرى ــ إلا عنصرا من عناصر الترابطات الصوتية والتصورية، ويصح هذا أيضا حين ننظر إلى الكلمة في سياقها المزدوج الصوتي والدلالي[3]، وهو ما سنقوم به الآن وبشكل مختصر جدا.

1) **في لغة الطفل** : لاتقوم الكلمة بأي دور. ونحن نعلم أن الإدراك عند الشخص البالغ تلفيقي (Syncrétique) أي أنه يعمل بطريقة إجمالية، وبواسطة خطاطات تعبر في مجموعها عن الصفات الجشطالتية (Gestaliqualitüt)(+) للأشياء قبل تحليلها. واللغة تستعمل طريقة مشابهة : فالجملة التي هي العنصر الاجمالي سابقةٌ للكلمة، وأما **المَعْجَمَة**(++) (Lexicalisation) وهي ظاهرة تحليلية، فلا تمثل في اللغة، إلا جانبها اللاحق. إن الأهالي في بعض قبائل أفريقيا والجُلاَهِيِّين (Les Golahs) في ليبيريا على سبيل المثال، لايعرفون للكلمة وجودا : فهم ينظرون إلى لغتهم على أنها ظاهرة مُجْمَلَة، ولذلك لم يُفَرْدِنوا(+++) (individualisent) الكلمة داخل الجملة.

---

(1) علينا ألا ننسى – كما يقول فندريس (اللغة ص 368) – أنه «قبل كتابة الكلمات بدأ الناس بكتابة الأفكار».

(2) Meillet : (L.H.L.G.) T. 2. p : 10

(3) يميز سوسير بين العلاقات النظمية (Syntagmatiques) التي تنتج عن ترابط الألفاظ في السلسلة الكلامية، وبين العلاقات الترابطية (associatives) القائمة بين جميع العناصر التي تتألف منها الألفاظ (م.ع.ل.ل.ع. ص170)، وقد لاحظ علماء النفس أنه عندما كان يتم إضعاف الموضوع [الفكرة] كانت العلاقات الخارجية (extrinsèques) (وهي المشابهات الصرفية والصوتية) تتغلب على العلاقات الذاتية (intrinsèques) (وهي الدلالة).

(+) الجشطالتية او الجشطالطية، من الكلمة الألمانية (Gestalt) التي تَعْني الشكل أو الصورة. ونظرية الجشطالتية أو نظرية الأشكال والصور هي «في الأصل نظرية نفسية تذهب إلى أن الظواهر النفسية وحدات كلية منتظمة، لها من حيث هي كذلك خصائص لا يمكن استنتاجها من مجموع خصائص الأجزاء. ومعنى ذلك أن إدراك الكل متقدم على إدراك العناصر والأجزاء، وأن خصائص كل جزء متوقفة على خصائص الكل. مثال ذلك أن الطفل يدرك الحيوان من جهة ما هو كل لا من جهة ما هو مركب من أجزاء. فإدراك الكل إدراك مباشر، أما إدراك الأجزاء فهو إدراك مكتسب ناشيء عن التجريد والتحليل» عن (المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا ــ دار الكتاب اللبناني. ط. 1. سنة 1971) (المترجم).

(++) تحليل الجملة أو السلسلة الكلامية إلى عناصرهما المعجمية. وكل عملية معجمية فهي مَعْجَمَةٌ. ويمكن أن نشتق منها فعل مَعْجَمَ يُمَعْجِم أي قام بهذه العملية. (المترجم).

(+++) أي حقق فَرْدَانِيَّة الكلمة أو منحها الصفات الخاصة التي تنفرد بها وتحقق ذاتيتها. وما دمنا نستعمل منذ قديم في العربية كلمة (فردانية) فلماذا لا نستعمل الفعل (فَرْدَنَ يُفَرْدِن) على غرار (شَخْصَنَ) التي استعملت حديثا أيضا ؟ (المترجم).

وفي عملية الاستدلال العقلي عند الطفل ولغته، نجد الخِطاطة[+] أي العنصر التلفيقي، يقوم بدور أكبر بكثير مما هو عند البالغ. فبالنسبة للطفل نجد أن الجملة التي تمثل الحقيقة الأساسية، ليست مُحلَّلة ولا مقسَّمة إلى كلمات. والطفل لا يُتعب نفسه بحثًا عن كلمة ـــ داخل خطاب ـــ لا يفهمها، بل يفكر بطريقته الأنانية والمُجملَة، ولا يتوقف عند الكلمة التي يجهلها، والفراغ الذي تتكون منه هذه الكلمة يُفسَّر عنده بواسطة الخطاطة التي هي الجملة (انظر : بياجيه : **اللغة والفكر عند الطفل** ص194).

2) **من الناحية الصوتية** : لا نجد للكلمة إلا قدرا ضئيلا من الاستقلال الذاتي، لدرجة أنه يمكننا أن نزعم أن ليس لها إلا وجود نظري. إن الكلمة «تذوب داخل السلسلة الكلامية التي يتم إرسالها»، وهي ليست سوى عنصر من عناصر الجملة، والكلمات الفرنسية يمكن حسب السياق والوسط المجتمعي المستعملة فيه أن ينطقها الشخص الواحد بأشكال متغايرة[1]. ونحن نعلم أن أنصاف المتعلمين الذين لا يجهلون وجود الكلمات، يُقطِّعون الألفاظ في الكتابة تقطيعًا اعتباطيا كالآتي :(je tanvoi dézeu par lotocar)[++] [2].

3) **ومن حيث الدلالة** : زعم سوسير (م.ع.ل.ع. ص100) أن الدال (أي الصورة السمعية أو الشكل) والمدلول (أي التصور)[+++] كانا متميزين وأن الرابط الذي يجمع بينهما كان اعتباطيا، أي أنه ليس سوى ثمرة الاصطلاح الضمني الموجود بين أفراد الجماعات اللغوية. تُرى هل يقوم هذا التمييز إذن على أساس أم لا ؟ الظاهر أن الأمر يقتضي عند سوسير وجود الدال منفصلا ومستقلا عن المدلول[++++]، ولكن الفكر في واقعه لا يُعرف

(+) الخِطَاطَة (Le Schéma) هنا لها معنى فلسفي، وهو «الطريق الذي يتخذه الخيال من المعقول إلى المحسوس، أو المنهج الذي نتبعه لغاية تصور المحسوسات وفهمها حسب مقولات الفكر» (انظر : مصطلحات فلسفية – كلية الآداب – جامعة محمد الخامس – ط. 2. الدار البيضاء – بدون تاريخ) (المترجم).

(1) كلمة fenêtre = نافذة، تنطق (fenètre) في بيت شعري كلاسيكي. وتنطق (fnètr = fenètr أو fnèt) إذا كانت قبل صامت.

(2) في الفرنسية الفصيحة كما في الكلام العامي وفي اللهجات الاقليمية، يؤدي التقطيع الاعتباطي للكلمات إلى ظاهرة الالصاق، مثل : (l'ierre) في (le lierre) و (loriot) في(le loriot) و (l'évier) في (le lévier) في الاستعمال الشعبي.

(++) وأما عند المتعلمين فتقطيعها هو : (je t'envoi des oeufs par l'autocar) (= أبعث إليك البيض بواسطة سيارة نقل) (م).

(+++) في الطبعة التي اعتمدناها في الترجمة، فسر المؤلف كلمة المدلول (Signifié) بأنه الصورة السمعية أو الشكل، وفسر الدال (Signifiant) بأنه التصور. وهذا عكس ما قال به سوسير في كتابه الذي ينقل عنه أعلاه (م.ع.ل.ع.)، وقد اضطررنا لتصحيح هذا الخطأ الذي نعتقد أنه مجرد سبق قلم أو تطبيع (م).

(++++) الواقع أن كلام سوسير في كتابه الشهير (م.ع.ل.ع) عن العلاقة بين الدال والمدلول لا يفهم منه أن أحدهما منفصل ومستقل عن الآخر كما يقول المؤلف، بل نجده يؤكد عكس ذلك غير ما مرة، وينبه إلى شدة التلاحم بينهما حتى إنه رفض تشبيه العلاقة بينهما بالعلاقة بين الروح والجسد وذهب إلى أبعد من ذلك فقال : «وكثيرا ما شبهوا هذه الوحدة التي لها وجهان بوحدة الذات البشرية المركبة من الجسد والروح، لكن هذا التشبيه بين الأمرين لا يرضينا كل الرضى، ولعل الذهاب إلى تمثيلهما بمادة كيماوية مركبة كالماء مثلا يكون أقرب إلى الصواب. فالماء إنما هو توليف بين الهيدروجين والأوكسيجين، إلا أنك إذا اعتبرت كل عنصر من هذين العنصرين على حدة، لم تجد له أية خاصية من خصائص الماء» (دروس في الألسنية العامة. تعريب صالح القرمادي وآخرين. ص161.ط. الدار العربية للكتاب. 1985). ثم شبه الدليل بالورقة وجعل الدال بمثابة وجهها والمدلول بمثابة ظهرها ولا يمكن تمزيق وجه الورقة دون تمزيق ظهرها والعكس بالعكس، وذلك كناية عن التلاحم القوي بين طرفي الدليل (ص174 نفسه). وفي موضع آخر يقول : «لا وجود للكيان اللغوي إلا بفضل اقتران الدال بالمدلول.. وما أن نقتصر على أحدهما دون الآخر حتى يتلاشى ذلك الكيان ويضمحل» (نفسه. ص 160) (المترجم).

عندنا إلا بواسطة العبارة التي تؤديه. ودراسة العلاقات بين الشكل والمعنى قد تتجاوز إطار عملنا، ومع ذلك علينا أن نلاحظ أن أعمال علم النفس اللغوي المعاصرة تبدو وكأنها قد أثبتت عدم وجود تعارض مطلق بين الطرفين كما يقول ل. ميرسون (L. Meyerson) : «لا نستطيع أن نتصور وجود شكل خالص دون دلالة، كما لا نستطيع أن نتصور فكراً خالصا لا يحمله أي شكل. إن مفهومي الدال الخالص والمدلول الخالص هما الغاية التي يمكن بلوغها، ولكننا في الواقع نكون دائما أمام مركبات دلالية»[1].

إن مفهوم الدلالة (Signification) ليس بسيطا. فالكلمة، سواء حسيّة أم ذهنية، لها دائما قيمة مجتمعية قد تكون عقلية أو عاطفية. وبهذا الجانب من الدلالة على الخصوص تهتم المعجمية. ولكن الكلمة — كما رأينا — ليست منعزلة داخل وعينا، فهي تُقيم مع مُجاوِراتها في السياق علاقاتٍ نظمية[2]. ولقد كتب مايه يقول : «ليست الكلمة جزءا من التركيبات الثابتة، فقيمة الكلمة في مثل هذا المجموع لا تفسر عن طريق معناها الاجمالي أو العام ولكن عن طريق التعود على رؤيتها داخل بعض التركيبات»[3].

والكلمة بعيدًا عن السياق، ترتبط داخل الوعي بكلمات أخرى مشابهة لها في الشكل أو المعنى، وتلك هي العلاقات الترابطية. ويمكن أن نضيف إلى هذه العلاقات التي لها على الخصوص جانب ثقافي وأحيانا عاطفي روابط ذاتية خالصة. فلا ينبغي الحديث عن (الحَبْل) في منزل مشنوق، ولا عن (الرئتين) أمام مصاب بداء السل. إن الأصداء العاطفية التي تؤلف ما كان وليام جيمس يسميه **هُدْب الكلمة أو هَالَتها**، يمكنها في بعض الحالات أن تتنحَّى عن شعور الفرد المتكلم أو الكاتب، وفي بعضها الآخر تقفز إلى مقدمته. وذلك ما ينطبق على المفردات الشعرية وكذلك الكلمات الشائعة التي شحنتها الانفعالات بشحنات عاطفية : لنحاول اليوم تعريف كلمات من مثل : **مقاومة – فاشستي – بروليتاريا – ديموقراطية – حريـــة**... الخ[4]، ولنحاول ذلك حتى بالنسبة لكلمة مثل **(حق)** التي لها معنى عقلي محاط بهُدْب من الدلالات[5]. ثم إن تعدد معاني الكلمة يفسر صعوبة الترجمة من لسان

---

(1) Fonc. Psych. p : 110

(2) C.L.G. p :170 (م.ع.ل.ع)

(3) L.H.L.G.,T. 2.p : 10 وهذا ينطبق على الكلمات المستعملة في تراكيب محفوظة، فمن ذا الذي يفكر في المعنى الخاص بكلمة (agréer = تقبَّل) في التركيب التالي : (Veuillez agréer l'assurance de...) ؟

(4) لذلك اقترح ف. فولهان (F.Faulhan) في : **(ما معنى الكلمات ؟** (Qu'est ce que le sens des mots ?) المنشور بـ : (Journal de psychologie.25. p:289) أن نميز بين **المعنى** (Sens) **والدلالة** (Signification) قائلا : «**إن معنى** الكلمة يبدو لنا إذن وكأنه شيء مركب ليست **الدلالة** إلا جزءا منه... **والدلالة** هي أي مفهوم تعتبر الكلمات والجمل أدلته المباشرة. إنها — افتراضيا على الأقل — ينبغي أن تكون، وبشكل محسوس، شيئا واحدا بالنسبة للمرسل، ولا تتغير من شخص لآخر. فكلمة (أب) باعتبار أنها تدل على درجة معينة من القرابة تحتفظ بالنسبة للجميع بدلالة واحدة، ولكن ليس لها نفس المعنى بالنسبة للطفل المدلَّل والطفل السيء المعاملة... ولربما فهمنا جيدًا الفرق بين (المعنى) و (الدلالة) إذا رأينا كيف أن جزءا من **المعنى** يمكن أن يؤلف **دلالة** جديدة. نحن مثلا ندل بكلمة (أب) وبشكل شائع على شخص طيب لم يكن له ولد قط».

(5) كلمة (حق) (Droit) ومدلولها القانوني لم يُحدَّدا بما فيه الكفاية. انظر ميرسن (Meyerson) في (Cheminement de la pensée. p 532) : **مسيرة الفكر**).

إلى آخر، فالأهداب لا يحاط بها بدقة[1].

من جهة أخرى يمكن للكلمة، أو على الأصح، للصورة السمعية والصرفية أن تعبر عن تصورات جد مختلفة. ففي اللسان الذي يتألف من كلمات قصيرة مثل الفرنسية، يقوم تعدد معاني عدد كبير من «الكلمات الصرفية» بدور مهم، وبفضله تصبح التجنيسات أمرا ممكنا. فالوعي الشعبي قادر كما نعلم على التقريب بين الكلمات المتشابهة شكلا والمتباينة معنى، كما يقوم الاشتقاق الشعبي بترجمة هذه القرابة المفترضة التي قد تستطيع بشكل من الأشكال أن تغير معاني الكلمات المتقاربة[2]. ألا يقودنا تعقيد مفهوم الدلالة إلى إنكار وجود الكلمة ؟ أليست الكلمة مجرد طريقة سهلة لتعيين ما ليس سوى لحظة مهملة داخل مسار تشكيل الفكر، أي مجرد جانب قليل الأهمية من جوانب سلسلة التكتلات الصوتية والتصورية ؟ ألا تكون الكلمة تجريدًا ؟ سديما فكريا ؟[3]

علينا ألا نكون مخدوعين لا بالكلمة التي لا يناسب أن نجعل منها أُقْنومًا، ولا بالأحكام القاسية جدا التي نصدرها عليها. إن الكلمة موجودة، وكما يقول سوسير : «...الكلمة رغم صعوبة تعريفها، هي حدٌّ من الحدود التي تفرض نفسها علينا، وشيء مركزي في آلية اللسان». وحتى لو كانت الكلمة مجردة من الوجود الموضوعي الملموس، هل من المعقول أن ننفي حقيقتها ؟ إن الكلمة لها وجود مجتمعي : فهي قبل كل شيء **فعل اجتماعي**[4]، والدليل الذي هو الكلمة شيء مجرد اعتباطي متحرك، ولكن «لأننا نحدد المعنى المتحرك لهذا الدليل، ونعهد إليه بموجب ذلك بحقيقة معينة، فإننا ننجح في

(1) كان منطق بور رويال (La logique de Port-Royal) قد لاحظ هذا منذ زمن طويل حين قال : «يحدث في الغالب أن تثير كلمة، زيادة على الفكرة الرئيسية التي تعتبرها هي الدلالة الخاصة بهذه الكلمة، كثيرا من الأفكار الأخرى التي يمكن أن نقول عنها إنها ثانوية. وهي الأفكار التي لا ننتبه إليها رغم الانطباع الذي يحصل في النفس عنها... وأحيانا لا تكون هذه الأفكار الكمالية مرتبطة بالكلمة عن طريق الاستعمال العام ولكنها تكون قد اقترنت بها فقط عن طريق الشخص الذي يستعملها» (انظر : La logique ou l'art de penser ط. 5. ص 125 – 127 نقلا عن ل. ميرسن. مرجع سابق ص 92).

وقد أورد قاموس ليطري (E. Littré) آراء قريبة من هذا (انظر هذا القاموس. المقدمة. ص 16) فقال : «تتجه الكلمة، وهي بين الأصابع التي تتحكم في استعمالها بمهارة، تارة نحو هذه الدلالة وتارة نحو أخرى. ودون أن تفقد شيئا من قيمتها الذاتية ومن خاصيتها الحقيقية تظهر بها معان قد لايشك في أصالتها أحد. إننا نشعر بأن الكلمة التي تبدو أكثر بساطة وربما أقول أكثر انسجاما، تنطوي بداخلها على معانٍ دقيقة متعددة تظهر عند الاستعمال ويستفيد منها اللسان».

(2) يقدم أفلاطون في **محاورته** بعض العيِّنات من الاشتقاق الشعبي التي كثيرا ما تمت مناقشتها من أجل معرفة ما إذا كان من المناسب حملَها محمل الجد، ولا يهم كثيرا إذا كانت هذه العيِّنات تعطي انطباعا حقيقيا عما كان يحسه الأثيني الذي يتكلم لسانه الخاص. ففكرة تفسير اسم (الحب) باسم المفعول وهو (المحبوب) تثير بحق مؤرخ اللسان. إنه اشتقاق من المستحيل تأييده. ولكن اذا كانت الكلمة تستدعي اسم المفعول الذي هو (المحبوب) في وعي الأثيني، فإن هذا الأخير هو الذي يكون على صواب رغم أنف الاشتقاق. وعلينا أن نسجل باهتمام شهادة أفلاطون حول العلاقة التي كان قد وقع الإحساس بها بين الكلمتين. (انظر : ڤندريس في : Ps.L.p : 176)

(3) Delacroix : L.P. p :395.

(4) بتأكيد سوسير الفرق بين الدال والمدلول قام ضمنيا ضد رأي الإغريق الذين كانوا يعتقدون أنهم يلاحظون وجود مناسبة [= علاقة] بين الكلمات والأشياء وبين الأصوات والتصورات. ولكن كما قال ذلك بحق السيد هوليمان (مرجع مذكور سابقا. الفصل 5) فإن خطأ الإغريق ظل قائما عنده في ادعاء «وجود مناسبة سابقة. إن سوسير، عوض أن يتحدث عن الفعل الحقيقي للخطاب والتواصل الاجتماعي، تمسك بما كان عليه الاغريق. لكن أقام مقام الخاصية الطبيعية خاصيتي الاعتباطية والمواضعة، فظل في مستوى تجريدي بعيدًا عن الواقع». والواقع هو «أن المناسبة ليست طبيعية ولا اعتباطية، إنها اجتماعية».

التحكم فيه وكأنه واقع ملموس وجَعْلِه في خدمة التقدم الفكري»[1].

على أن العلم له الحق في أن يمنح الكلمة استقلالا ذاتيا حتى ولو كان هذا الاستقلال لا يظهر عمليا بوضوح. إن الكلمة ـــ كما رأينا ذلك ـــ لها جوانب صرفية وتركيبية وأسلوبية...الخ. والمعجمية بإهمالها لهذه الخصائص الثانوية، ستقوم في الواقع بتقطيع يسمح لها بعزل الوظيفة الدلالية للكلمة من أجل دراستها جيدا[2].

3 – الكلمة والفكر

أ – المشاكل التاريخية :

زعم اللسانيون الحَذِرُون من تجاوز الحدود التي يرسمها لهم العلم الذي يشتغلون به، أن مشكلة أصل اللغة لا تهمهم[3]، ولم يهتموا قط ببحث العلاقات بين الكلمة والفكر بدعوى أن هذه الدراسة من اختصاص علم النفس.

ومع ذلك، فإن هذه القضية الأخيرة لها فائدة لغوية. وقبل عرض الأفكار الحديثة في الموضوع، رأينا من المفيد أن ندرس باختصار الطريقة التي وقع بها في الماضي تناول العلاقات بين الفكر والدليل الشفوي، وهو ما سيقودنا إلى تقديم نظرة تاريخية سريعة حول نظريات أصل اللغة.

هناك طريقتان يمكن بهما دراسة هذه النظريات : الأولى : هي بلا شك تقسيمها بحسب ما بينها من صلاتٍ دون اعتبار تواريخها، والثانية : تقوم عكس ذلك على الترتيب التاريخي.

وقد اخترنا هذه الطريقة الترتيبية :

الترتيب الزمني : نظرة تاريخية سريعة حول علاقات الكلمة بالفكر.

1 – في القديم :[4]

لاشك أن من القضايا الأساسية في الفكر الإغريقي تلك القضية التي يطرحها تعدد معنى كلمة (Logos) (لوغوس) التي تعني في الوقت الواحد العقل واللغة[5]. **فاللوغوس** هو واحد من أهم موضوعات الفلسفة الأفلاطونية.

لقد رفض أفلاطون أطروحة بروتاغوراس وديموقرطس اللذين كانا يريان أن اللغة هي نتيجة الاعتباطية والاصطلاح، وذهب إلى أن الكلمات تقلد طبيعة الأشياء (وهو الرأي الذي حاول تأييده في **المحاورة**) عن طريق اشتقاقات عشوائية[6]، وأن اللغة هي الوسيط بين عالم الأفكار والعالم المحسوس. لقد ظن أفلاطون أن «الفكر لا ينشأ عن اللغة، ولكن اللغة هي التي تنشأ عن الفكر. ومن أجل القدرة على

---

(1) م.ع.ل.ع. ص 159.

(2) ا. ميرسن. مرجع مذكور. ص 246 حيث يقول : «ينبغي أن نكشف داخل الكتلة المختلطة والمضطربة من الواقع، منطقة (خيطا رفيعا) يمكن عزلها منه بشكل كافٍ لأجل تحديد مواصفاتها».

(3) Vendryes : Le langage : 6

(4) سنجد في ص 42 عددا من الإشارات حول الدور الذي كانت تقوم به اللغة في المجتمعات البدائية، وحول الفضول اللغوي في العصور الكلاسيكية القديمة. اقرأ المقالة القيمة التي كتبها السيد لوجون : Lejeune : Confer. de l'institut linguistique. Paris. Klincksieck- 1949.

(5) انظر بريس باران (Brice Parain : Essai sur le Logos platonicien)ففي هذا الكتاب سنجد (ص 11) سردا طويلا لمعاني كلمة (Logos) (لوغوس) المختلفة : كلمة–لغة–تحديد–برهان–عقل...الخ. وهذا التعدد في الدلالات يوضح بشكل كاف طبيعة العلاقات التي كانت بالنسبة للإغريق موجودة بين اللغة والفكر. ولعل الأعمال الجديدة بينت أن (لوغوس) لا يعني بالضبط (فكرًا) ولكن يعني بالأحرى (الخطاب المنظم) وأنه «جزء من منطقة الفكر التي هي في الأصل شفوية، والتي هي من اللغة الداخلية» (Meyerson : Fonctions psychologiques p :87)

(6) اقرأ في هذا الموضوع : (Essai sur le Cratyle de V.Goldschmidt. Paris. champion 1940).

تسمية الأشياء ينبغي فهم هذه الأشياء». أما أرسطو الذي قلنا إنه كان قد صاغ النظرية الحديثة الأولى للغة، فقد عارض أفلاطون. فالكلمات بالنسبة إليه ليست ظاهرة طبيعية. إنها اصطلاحية خالصة. والاسم لا يكون له وجود إلا حين يصبح رمزًا، أي رمزًا لما نطلق عليه «التمثيلات الجماعية» وليس رمزًا للحالات النفسية الفردية. أما الرواقيون الذين اهتموا اهتماما شديدا بمشكل اللغة، فقد أكدوا، مثل هيروقليطس، أن الفكر لا يكون له وجود ما لم يقع تحديده بواسطة الكلمة. فاللوغوس له مظهر داخلي وهوالفكر، ومظهر خارجي وهو الكلمة. أما الأبيقوريون، فقد كانوا هم الأوائل الذين تناولوا الأفعال اللسانية من زاوية تاريخية مع تقديم حل نفسي للمشاكل المتعلقة بأصولها : «فلا أحد يستطيع أن يوزع الأسماء على الأشياء» لأن اللغة هي نتاج الطبيعة. وقد أصبحت على الشكل الذي هي عليه بدافع حاجات الإنسان.

2 – العصر الوسيط :

لن تشدنا أفكار العصر الوسيط إليها كثيرا، فلقد أجاب القديس جريجوري دي نيس (Grégorie de Nysse) (القرن الرابع الميلادي) أولئك الذين كانوا يرون أن اللغة وحيٌ إلاهيٌ معتمدًا على فقرة من سِفْر التكوين (الصحاح 2 الآية 19) نجد فيها القول بأن آدم — وليس الخالق — هو الذي أعطى للأشياء أسماءها. وهذا الرأي سوف يسود طوال العصر الوسيط، وهو أن «الأسماء قد وقع النظر إليها بالخصوص من زاوية عموميتها وعلاقاتها بالأفكار العامة. إن تاريخ نظريات التسمية تاريخ يخص النحو ومنطق الكليات»[1]. على أن المشكلة التقنية للكليات تتموضع داخل المشكلة اللاهوتية التي هي أوسع من «الأسماء الإلاهية» أي طريقة التحدث عن صفات الله. فالكلمات التي من قبيل : **حب، عدل، حكمة، قوة عليا**، لها خصائص مزدوجة، لأنها تدل في الوقت الواحد على نقصان الإنسان وعلى كمال الله.

3 – القرن السابع عشر :

أ –**ديكارت** : لم يهتم كثيرا بمشكل اللغة، فالفكر بالنسبة إليه متقدم على الكلمة، ولكن الدليل الموضوعي — وهو الكلمة — هو البرهان على وجود الفكرة : «ما يجعل البهائم لا تتكلم مثلنا هو أنها ليس لها أي تفكير، وليس لأن الأعضاء تنقصها» كما يقول. (œuv. éd. Adam. T.4.p : 574)وقد حرص ديكارت على أن يكون مفهومًا من الجميع، ولذلك تقبَّل الكلمات المعروفة التي يمكن أن توضع خلفها فكرة «واضحة ومتميزة» وتجاهل الأخرى (H.L. 6/526) ولقد أظهر باسكال نفس اللامبالاة تجاه الكلمات[2].

ب – **التجريبيون** : يربط فلاسفة هذه المدرسة بين دراسة الكلمات ودراسة الأشياء. وقد كتب لوك (Loke) مقاومًا **الأفكار الفطرية** الديكارتية، فقال : «ليس عندي شك في أننا لو استطعنا إرجاع كل الألفاظ إلى منبعها، لوجدنا أن الكلمات التي نستعملها في كل الألسنة للدلالة على الأشياء غير المحسوسة، قد استمدت أصلها الأول من أفكار محسوسة»[3]. وهكذا نجد أن كلمة (esprit)

---

(1) Janet et Séailles (مرجع مذكور) ص 233 وانظر : Bréhier : Histoire de la Philos.

(2) الخاصية الاعتباطية للتسمية أثارت باسكال فقال : «لاشيء أسهل من أن نطلق على الشيء الذي حددناه تحديدا واضحا الاسم الذي يختاره بكامل الحرية. إلا أنه ينبغي أن نحذر سوء استعمال الحرية التي لدينا في فرض الأسماء بإعطاء الإسم الواحد لشيئين مختلفين»
(Pensées : éd. Brunsch. Vieg. p : 166)

(3) نقلا عن (Janet et Séailles) مرجع مذكور ص 236.

(أي نَفْس بسكون الفاء) كانت تعني في البداية (نَفَس) (بفتح الفاء)، وأن كلمة (ange) (مَلاَك) كانت تعني في الأول (رسول).

ج – **لِيبْنَز** : يمكن اعتبار لِيبْنَز واحدًا من الذين أوجدوا علم اللغة. لقد ترك جانبًا الرأيَ الذي كان سائدًا وهو أن العِبْرية أم اللغات، ونادى بالدراسة المقارنة. وبالنسبة إليه تعتبر «حكاية أصوات الطبيعة هي الأصل في ميلاد الكلمات. وهذا يتضح بالعلاقة الموجودة بين العناصر الصوتية للألفاظ والأشياء التي تدل عليها هذه الألفاظ»[1]. ولقد كانت عند لِيبْنَز فكرة تدعو إلى وجود لسانٍ أو بالأحرى وسيلةٍ للتعبير ذات طبيعة رياضية، بحيث يكون لكل تصور رمز خاص يدل عليه. وهذه الفكرة، فكرة اللسان العالمي، كانت موجودة من قبل عند ريمون لول (Raymond Lulle) في القرن السادس عشر، ولكنها كانت قائمة على أسس خيالية غير مضبوطة، فتلقفها لِيبْنَز وقدمها بشكل منطقي. وهو يرى أن هذا اللسان المصطنع يشبه فن الاختراع، فهو في بعض النواحي عبارة عن لسان علمي مساعد.

4 – القرن الثامن عشر :

أ – **كُونْدِيَاك** : يرى أن «الإحساس يتضمن كل قدراتنا، واستعمال الأدلة (Signes) يزيد في هذه القدرات. فبين التحليل واللغة ليس هناك مجرد قرابة بل تطابق واتحاد»[2] وإذا كانت الفكرة يمكن اختزالها في كلمة[3]، وكان الفكر مرتبطا باللغة، فالعلم ليس إذن سوى لسان متقن الصنعة : «إذا لم تكن لنا تسميات فلن تكون لنا أفكار مجردة» (Logique. II. chap. 5) ولن نستطيع أن نعقل شيئا. إن التصور اللغوي، والمنهج إلى حدما، تحليليان عند كوندياك. فاللغة عنده لها أصل طبيعي (تغيرات الصوت لها علاقة بحركات الجسم)، إذ وجدت في البداية «لغة الفعل» المركبة والمشوشة، وبعدها الكلام الذي وجد حين استطاع الإنسان أن يفك فعل الآخر وفعلَه هو من أجل فهمهما جيدا»[4].

ب – **روسو (بحث في أصل اللغات)** :

كان روسو مقتنعا مثل كوندياك بأن اللغة لها أصل طبيعي. ولكنه عكس كوندياك، كان يرفض أن يرى في التجارب الأولى للغة عملا تحليليا. يقول : «كانت اللغة الأولى مصوَّرة. وكانت تعبر عن الانفعال الذي يحدثه الشيء وليس عن الشيء ذاته»[5]. إن روسو يعبر عن الفكرة التي نجدها في عصره عند ج . د. ميكاليس (J.D. Michaelis) وبعد ذلك عند همبولد في ألمانيا، وهي أن الإنسان يصوغ تصوره الخاص للعالم بواسطة هذا الشيء القومي الذي هو اللسان. «... إن النفس لها في كل لسان شكل خاص. وهذا الاختلاف هو الذي يمكن أن يكون بصفة جزئية السبب في وجود الخصائص القومية أو الأثر الناتج عنها»[6].

5 – من بولاند إلى دوركايم والماركسيين :

أ – **بُولاَنْد** : أبان بولاند (Boland) — بطل

---

(1) E. Bréhier : Histoire de la philosophie. T. 2. (I) p : 397.

(2) هناك آراء مشابهة نلقاها في مختلف العصور عند فلاسفة المدرسة الاسمية مثل هيوم وستيوارت ميل وطين (Taine). وقد كتب هذا الأخير في (De L'intelligence. T. II. p : 259) يقول : «إن الفكرة العامة والمجردة اسم وليست سوى اسم. والاسم الذي له دلالة ويفهم من مجموعة وقائع متشابهة يكون عادة مصحوبا بتمثيل محسوس ولكن غامض لواحد من هذه الأحداث أو هؤلاء الأفراد».

(3) نحن نعلم التأثير الذي مارسته أفكار كوندياك على ميلاد المفردات العلمية. فلقد تلقى جيطون دي مورفو (Gyton de Morveau) ولافوازيه (Lavoisier) تكوينهما على يد منطق كوندياك.

(4) لقد قام علماء نفسيون من القرنين التاسع عشر والعشرين بتمحيص أفكار كوندياك منهم ويندت (Wundt) ومارسيل جوس (Marcel Jousse) وبياجيه...الخ. انظر الفقرة الآتية بعنوان (التحليل النفسي واللغة).

(5) Essais sur l'origine des langues. chap. 3.

(6) Emille. I. 116

التقليدية والدين ـــ عن أفكار مناقضة تماما لأفكار العصر السابق. وقد انطلق من المبادىء التي وضعها كوندياك، ولكنه عكس تأويلها. ويمكن تلخيص أطروحته على النحو الآتي : إن هذه الفكرة العقلانية التي تقول إن الفكر لا يمكن أن يعرف إلا بواسطة العبارة التي صيغ بها، فكرة تحوي علم الإنسان كله. كما أن الحكمة المسيحية التي تقول : لقد أُخبِرَ عن الله بواسطة كلمته، تحوي علم الإلاه كلّه.(1).

ب – **المدرسة الفلسفية : من ماكس مولر إلى رينان** : لقد كان للتقدم الذي أحرزت عليه الفيلولوجية المقارنة أن حملت اللسانيين على مراجعة نظرياتهم حول أصل اللغة. فاللغة حسب ماكس مولر ليست اختراعًا أو نتاج وحي إلاهي ولكنها نتيجة الطبيعة. فقد كان على الإنسان أن يبدأ بأفكار عامة تعبر عن مفردة مجردة مكونة من مقطع واحد، وهي الفكرة التي قاومها كل من ميشيل بريال(2) ورينان الذي نسب اختراع اللغة «إلى مَلَكات الإنسان التي تعمل بشكل تلقائي وبشكل جماعي»(3).

ج – **الفَسْلَجة واللغة** : تأثر داروين من جهة، بدراسات ش. بيل الذي بيَّن أن الدليل ما هو إلا فعل في صورته الأولى، وتبنى من جهة أخرى، نظرية تعود إلى لوكريس (Lucrèce) (انظر :De Nat. I.V. 1026) وكان قد أخذ بها كل من همبولد ورئيس بروسيا (Président de Brosses) فأصبح في بحثه حول **(لغة العواطف)** يجعل من نفسه مدافعا عن مذهب التحوُّلية اللسانية، ويرى أن اللغة قد تكون هي آخر مرحلة في التطور الذي نجد مظاهره الأولى في الأدلة الطبيعية وهي صرخات الحيوانات، وغناء الطيور، وصرخات المولود الجديد، كما نجد آثاره المتأخرة في صرخات الإنسان البدائي التي كانت تصاحب الحركة والفعل.

هذه الأطروحة التي نجدها أيضا عند هـ . سبنسر، كما عند اللسانيين أمثال شلـيشر(4) وجبرسن(5)، كان قد وقع تجديدها حديثا على يد علماء نفسانيين (أمثال جانيهJanet وبياجيه) يرون أن الرمزية اللسانية عند الطفل مشتقة من التعبير الإيمائي. وهو رأي يُعتقد اليوم أنه صحيح، ولكن يمكن أن يلاحظ عليه كونه خلط بين دراسة اللغة وبين أي علم من العلوم الطبيعية، وأهمل العنصر النفسي، بل وأكثر من ذلك أهمل العنصر الاجتماعي للغة.

د – **التحليل النفسي واللغة** : إن الكلمة التي ارتبطت في البداية بالحركة، كما بيَّن ذلك علماء الفَسْلَجة (علم وظائف الأعضاء)، أصبح لها فيما بعد وجود مستقل. وتلك هي الفكرة التي يلح عليها التحليل النفسي. ويفسر فرويد سحر الكلمة فيقول : «الكلمة في الأصل جزء من الفعل. ويكفي

---

(1) (Législation primitive. Discours préliminaire) نقلا عن (Janet et Séailles) مرجع مذكور ص 251). ولنذكر أيضا من هذا الكتاب نفسه لبولاند قوله : «الفكرة سابقة للفظ منطقيا، هذا صحيح، ولكن لا يتم الوعي بها إلا مع الكلمة وبواسطتها. إن الأفكار تعيش فينا كامنة غير مُدرَكة، وفي منطقة واقعة خارج الزمن، فتقوم الألفاظ، في توافق عجيب معها، وبنوع من الالتحام الذي تم من قبل، بفضيلة تحويلها إلى شيء قابل للإدراك وحملها إلى نور الوعي».

(2) Mélanges de Mythologie et de linguistique. 1878.

(3) Origines du langage. p :90.

(4) Scheicher : Die Deutsche Sprache (1960) : Die Bedeutung der Sprache (1963).

(5) Langage (1922); Mankind, National and individual from a linguistic point of View (1925).

وجودها لإثارة الانفعال التام به واستحضار معناه الملموس كاملا. ومن بين الكلمات الأكثر بدائية على سبيل المثال، نجد بطبيعة الحال صرخات الحب التي تُستخدم من أجل الشروع في الفعل الجنسي. ومنذ ذلك الحين، ظلت هذه الكلمات، وكل الكلمات التي تشير إلى هذا الفعل، محملة بقوة انفعالية مباشرة.

ومثل هذه الأمور، هو الذي يفسر ذلك الميل العام في الفكر البدائي نحو اعتبار أسماء الأشخاص والأشياء والتسمية التي تعطى للأحداث، في جملتها، بمثابة صفات لهذه الأشياء والأحداث. ومن هنا كان الاعتقاد بأنه من الممكن التصرف في هذه المخلوقات والأحداث بمجرد استحضار الكلمات. فالكلمة على هذا، ليست مجرد لافتة أو علامة، بل هي واقع مخيف وجزء من الشيء المسمى».[1]

حقا، ليست الكلمة في الذهنية البدائية مجرد دليل لغوي أو أداة. فالعَالَمُ بالنسبة لهذه الذهنية إنما هو انعكاس للأنَا، وهناك تطابقٌ بين الدليل وبين الشيء الذي يمثله الدليل. وإن تحريم أسماء الموتى الذي ينتشر بكثرة في المجتمعات القديمة والذي هو البرهان على القيمة الكبرى التي تُعطى للكلمة، لَيَتَّسع في كثير من الأحوال حتى يشمل أسماء الحيوانات والأشياء التي تحمل ـــ صدفة في الغالب ـــ نفس الاسم المحرَّم الذي كان يحمله الشخص الحديث الوفاة. وهكذا يؤدى تشابه الأسماء إلى تحريمها جميعًا. وقد بيَّن فرويد أن التفكير الطفولي يضفي على الاسم قيمة مماثلة. فالطفل يقارن تطابق أو تشابه اسمين بتطابق أو تشابه الطبيعة. وكذلك التفكير غير الواعي للبالغ يعطي بدوره للإسم أهمية كبرى. هذا مع علمنا بالدور الذي تقوم به التجنيسات في العديد من الأحلام. فالمصابون بالعُصَاب يقومون برد فعل «عن طريق مركب حساسية واحد حين سماع قولٍ أو بعض كلمات أو أسماء. وكثير من اضطراباتهم يأتي نتيجة الموقف الذي يكون لهم حيال اسمهم الخاص»[2].

هـ – **الكَنْطِيَّة اللسانية الجديدة** : إن المدرسة الكَنْطية الجديدة التي كان كاسيرر (Cassirer) ممثلها الأساسي، بِنَقْلها نظرية التركيب الموجودة في كتاب (**نقد العقل الخالص**) إلى مجال اللغة، واستعمالها عددًا من أفكار همبولد[3]، تقترح علينا ألا نرى في اللغة مجرد نسخة مطابقة للواقع، ولكن أن نرى فيها «قوة مبدعة أصيلة». إن الصور النفسية التي نمتلكها بالمعرفة أو نحصل عليها في الفن أو اللغة، هي إذن بتعبير لِيبْنز «المَرَايَا الحيَّة للعَالَم». إنها ليست مجرد عمليات استقبال أو تسجيلات سلبية ولكنها أفعال نفسية[4].

---

(1) Piaget : Le langage et la pensée chez l'enfant. p : 10.

(2) فرويد (Totem et tabou, Payot- 83). ويلاحظ المؤلف نفسه (المرجع نفسه ص 96) أن الازدواجية التي هي إحدى خصائص التدرج النفسي للتفكير البدائي (التعايش، داخل المفهوم الواحد كمفهوم المحرَّم، بين عنصرين متناقضين : عنصر المقدس وعنصر النَّجِس) توجد في عديد من الكلمات المستعملة في الألسنة القديمة لتعبر عن مفهومين متضاربين.

(3) قال همبولد : إن أصدق تعريف للغة لا يمكن أن يكون تعريفا تكوينيا. فمن أجل فهم اللغة لا ينبغي الوقوف عند صورها وأشكالها، ولكن ينبغي البحث عن القانون الداخلي لهذه الأشكال والصور. وليس لنا الحق في أن نعتبرها بمثابة شيء كان وانتهى، أو بمثابة حاصل أو ناتج، بل علينا عكس ذلك أن نرى فيها إنتاجا. انظر : (Cassirer : Le langage et la construction du monde des objets. in. journal de psychologie 1933, reproduit dans. Ps.L. p : 22)

(4) كاسيرر، مرجع مذكور ص19. ومقالة كاسيرر هذه على جانب كبير من الأهمية.

و – **علم النفس الشعبي** (Volkerpsychologie) **واللغة** : تقدم المدرسة الألمانية التي ظهرت في البداية مع همبولد[1] ثم أخذت مع لازاروس (Lazarus) وسْطِينْطال (Steinthal)[2] اسم **علم النفس الشعبي**، اللغة على أنها هي المظهر الذي تتجلى فيه النفسية الجماعية «للروح الشعبية» (Volkesgeist). فمفردات كل شعب من الشعوب تعبر عن تصوره للعالم. وقد حلل لازاروس جيِّدًا دور الوساطة الذي تقوم به اللغة بقوله : «أن تجمع في الكلمة الواحدة مختلف الأحاسيس، وتمثل لمجموع الحالة النفسية بواسطة لحظة من لحظاتها المفضلة، ذلك هو دور اللغة»[3]. ولكن لازاروس ليس من علماء الاجتماع وكذلك سطِينْطال، ولذلك لم يدرسا الدور الذي تقوم به «الروح الشعبية» في مولد اللغة وانتشارها إلا بطريقة سطحية[4].

ز – **علم الاجتماع واللغة** : إن انفعالاتنا وقدراتنا على التعميم وكذلك تصوراتنا، هي كما أكد دوركايم ومدرسته (التي منها موس (Mauss) وليفي برول Lévy-Brûhl...الخ) من أصل اجتماعي : أي أن المجتمع هو الذي يستعمل الدليل — وهو الكلمة — من أجل إرسال الأفكار وبثها، وأنه بفضل التعميم الذي تقوم به اللغة، تتحول التمثيلات الملموسة والذاتية إلى تصورات مبهمة أو غير مشخّصة. ولقد تبنى عدد من اللسانيين (سوسير[5] — مايه — فندريس) هذا المفهوم وبيَّنوا أن اللغة كانت ظاهرة اجتماعية بارزة.

ح – **الماركسية واللغة** : لقد انتقد الماركسيون بشدة اللسانيات الاجتماعية. وسنعود في خاتمتنا للحديث عن المآخذ التي يوجهونها إليها والتي نعتقد أننا نجونا منها. والأساسي والخطير في هذه الانتقادات هو المتمثل في الآتي :

ففي تصور علم الاجتماع، تكون الأفعال الاجتماعية (واللغوية) «منفصلة تماما عن الشروط المادية للوجود وعن الانتاج الجماعي والعلاقات الاقتصادية. وهذه الأفعال تصبح معطيات اجتماعية مستقلة»[6]. والماركسيون لم يقعوا في هذا الزلل بطبيعة الحال لأنهم يقولون «إن التفسير الذي يُعطى لتكوين اللغة انطلاقا من سياق العمل نفسه هو وحده الصحيح»[7]، ولأنهم ينظرون إلى الأفعال اللغوية على أنها لا تنتمي إلا للبنية الفوقية للتاريخ، وأما البنية التحتية فهي مكونة من الظواهر الاقتصادية. واللسانيون الذين تبنوا النظرية المادية يجدون صعوبة في تحديد علاقات البنية التحتية بالبنية الفوقية. وبعضهم كان مضطرا لكي يعترف لهذه الأخيرة

(1) لنتأمل هذه الفكرة التي قال بها همبولد، وهي أن الفرق بين الألسنة «لايأتي من الاختلاف في الأصوات والأدلة، بقدرما يأتي من الاختلاف في رؤية العالم» (انظر كاسيرر. مرجع سابق ص20) ويمكن أن نقرأ في (دولاكروا Delacroix ص33) عرضا مفصلا حول آراء جد مهمة لهمبولد.

(2) لنذكر لسطينطال (Ursprung der sprache. 1951) و (A Briss der wissenschaft. 1971).

(3) (Lazarus : Leben der seele)نقلا عن (دولاكروا) مرجع سابق ص37.

(4) لن نشير إلى مدرسة النحاة الجدد ومنها بروجمان (Brugmann) وديلبروك (Delbruck) ولِسْكيان (Leskien)، التي أكدت حوالي 1870 صلابة القوانين الصوتية، ولا إلى الاتجاه الذي ينتمي له عدد من اللسانيين أمثال بالي (Bally) وف. برينو الذين درسوا اللغة في ضوء علم النفس، ذلك لأن أعمال هؤلاء تنتمي إلى علم اللغة التطبيقي لا إلى علم اللغة النظري الذي ندرس هنا تاريخه ومبادئه.

(5) انظر: W. Doroszewski : Quelques remarques sur les rapports de la sociologie et de la linguistique-Durkheim et F. de Saussure in. Psychologie: du langage. p.82 et 92.

(6) Reznikov :langage et société, in : cahiers int. de sociolo. VI (1949) p :155

(7) أنجلز نقلا عن ريزنيكوف. مرجع سابق ص157.

بقدر كبير من الاستقلال الذاتي. لقد كتب ريزنيكوف (Reznikov) يقول : «إن الفكر واللغة لا يرتبطان بطبيعة الحال ارتباطا مباشرا بالإنتاج المادي إلا في المستوى الأكثر بدائية من تطورهما، وبعد ذلك ــ وهذه الحركة دائما تسير في تصاعد ــ يحصل الفكر واللغة على استقلال نسبي، ويصبح تكييفهما مع الحياة المادية للأشخاص معقدا شيئا فشيئا، كما يصبح ارتباطهما بالشروط والعلاقات الاقتصادية له شكل متنوع وغير مباشر، ولذلك نستطيع القول : إذا كان تطور الفكر واللغة تحدده في النهاية الحاجة إلى الانتاج المادي، فإن هذا التطور يجد نفسه في وقت واحد خاضعا، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وبكيفية واضحة أو ملتوية، لتأثير كل أشكال الحياة الجماعية وكل أنواع النشاط والإبداع الاجتماعيين، وكذلك فإن الفكر واللغة تحددهما مختلف الأشكال التي تكتسب بها الحضارة سواء كانت روحية أم مادية»[1].

وفي مقالين منشورين بصحيفة (البرافدا) أثناء شهر يوليوز 1950، نجد الماريشال ستالين يتخذ بشكل رسمي موقفا من المسألة بإعلان القطيعة مع الوضع الذي تبناه مار (Marr) (توفي سنة 1934) وغالبية اللسانيين السوفيات[2].

إن ستالين يرفض بالفعل التسليم بأن اللغة تنتمي إلى البنية الفوقية[3]. إنها تقع (إذا صح تقديرنا) في منزلة متوسطة بين البنية التحتية والبنية الفوقية. ولنا أمل في أن يقوم اللسانيون الشيوعيون قريبا بتحديد وجهة نظرهم الجديدة، ويعملوا، خصوصا وبشكل أكثر مما مضى، على مجابهة النظرية الماركسية بحقائق اللغة : فالإحساس الموجود غالبا هو أن ما يؤكدونه من تفوق المنهج الماركسي ليس إلا إطارا لا علاقة له بلوحة اللسانيات التي يرسمونها بطرق وأساليب تتفق مع طرق وأساليب العلم «البورجوازي». وإن جهود الماركسيين التي قد تُبذل لتجاوز هذا الوضع البسيط جدا سوف يتابعها باهتمام كلُّ اللسانيين.

---

(1) ريزنيكوف. مرجع سابق ص 159.

(2) يمكن أن نتحفظ إزاء بعض الآراء التي عبر عنها ستالين وخصوصا فيما يتعلق بالطبيعة البدائية للغة. فنحن نعتقد مثل بيير جانيه في (Les Débats d'intélligences p : 31) أن الاستعمال الجيد للغة هو من خصائص الانسانية المتطورة جدا. وأما مثال «البدائيين» (الاستراليين مثلا) الذين يعرفون لغة متطورة فهو لا يدل على شيء إطلاقا، لأن هذه الشعوب ليست «بدائية» أبدا.

(3) سوف نستند من أجل التأريخ للمسألة، إلى المقالة الهامة التي كتبها مارسيل كوهن بعنوان : (Une Leçon de marxisme à propos de la linguistique : La pensée n° : 33. Nov-déc. 1950)